محمود محمد الروسان

دراسات في أنماط الخط الصفوي

محمود محمد الروسان
معهد الآثار والانثروبولوجيا
جامعة اليرموك
إربد، الأردن

Mohammad Mahmoud Rousan
Institute of Archaeology and Anthropology
Yarmuk University
Irbid, Jordan

إن دراسة أنماط هذا الخط ليست باليسيرة، وخاصة أن دراسته ومعرفة أبجديته مرت بمراحل عديدة وشاقة بدأت سنة ١٨٥٧م من قبل المستشرقين والرحالة الغربيين الذين قدموا إلى بلاد الشام والأطراف الشمالية لشبه الجزيرة العربية لأهداف متعددة، كانت النقوش العربية أحدها بالرغم من عدم معرفة الكثيرين منهم لأوليات وأبجديات هذه النقوش، وكانت الخطوة الأولى هي نقل كل ما تقع عليه أعينهم من كتابات ورسوم على صفحات الصخور التي كان يقودهم اليها متطوعون من أبناء البادية، حيث كانت هذه النقوش بالنسبة لهم ضرباً من أعمال خارقة. وهكذا كانت الخطوة الأولى في عام ١٨٥٧م من قبل العالم سيرل جراهام Cyril Graham ثم جوزيف هالفي J. Halvy الذي استطاع ان يتعرف على هوية سبعة أحرف من الأبجدية المسماة «الصفوية» وذلك في عام ١٨٨٢م بعد أن أخذ باعتباره اكتشافات سيرل جراهام عن طريق الجمعية الجغرافية الملكية بلندن، ولم تكن تلك المحاولات للتعرف على الأبجدية -رغم تعثرها - كثيرة، ومنها محاولة بلاو وديفيد مولر اللذين نشرا محاولاتهما في مجلة المستشرقين الألمانية (المجلد ١٤ ص ٤٥٠). أما جوزيف هالفي فقد تعرف على مصطلح البنوة «بن»، ونشر محاولته للتعرف على الأبجدية الصفوية في المجلة الآسيوية تحت عنوان «محاولة في دراسة النقوش الصفوية» عام ١٨٨١م.

وقد أدخل بريتوريوس بعض التعديلات على الأبجدية الصفوية، ولم يتخل عن محاولات. ج. هالفي.

أما اينو لتمان فقد أتم العمل في هذه الأبجدية ووضعها في الشكل الذي نعرفه الآن وذلك في عام ١٩٠١م، وبهذا أصبح لدينا ثمانية وعشرون حرفاً لهذه الأبجدية، وهي بهذا تشبه أبجدية لغتنا العربية.(١)

وقد جمع من النقوش الصفوية أكثر من عشرين ألف نقش منذ المحاولات الأولى وحتى يومنا هذا خاصة بعد اكتشاف الأبجدية مما يسَّر متابعة وكشف سر هذه النقوش من قبل المستشرقين والهيئات العربية سواء في دائرة الآثار الأردنية أم الجامعة الأردنية عن طريق قسم الآثار، وجامعة اليرموك عن طريق معهد الآثار والانثروبولوجيا. والأمل كبير في أن ترى هذه النقوش النور في مجلدات أو مقالات.(٢)

أما مواقع النقوش الصفوية المعروفة إلى الآن فتمتد من جبل العرب في سوريا إلى أواسط الجزء الشمالي من الجزيرة العربية - الصحراء الأردنية والعلا وتبوك وعرعر - ومعظمها كتب على رجوم في الحرار الصحراوية، وعلى حواف الوديان التي تخترق الصحراء، والتي كانت منذ ما قبل الميلاد موطناً يلتجىء إليها الإنسان طلباً للكلأ والماء، وللأسف الشديد فإن دراسة جادة لمعرفة إن كانت هذه الحرار أو ما جاورها من الأرضين تضم بعض المستوطنات، لم تتم حتى الآن باستثناء محاولات طفيفة لم تتابع من قبل العلماء.(٣)

ومن الراجح - حتى هذا التاريخ - أن الخط الصفوي إن لم يكن قد أخذ من العربية الجنوبية (المسند) للتوافق التام من حيث التعبير والاستخدام وبعض أشكال الحروف إلى جانب بعض المميزات اللغوية،(٤) إلا أن الجزيرة العربية هي المصدر الأول له.

أما أنماط هذا الخط ، وهي موضوعنا الحالي الذي تصعب دراسته بمعزل عن الخطوط العربية الشمالية المعاصرة له أو السابقة عليه، فلا بد من تناولها في بحث الأمور التالية:

- طريقة الكتابة،
- أدوات الكتابة،
- المواد التي كتب عليها هذا الخط.

والمقصود بطريقة الكتابة هنا: الاتجاهات والبدايات التي تتشكل

(١) للمزيد انظر محمود محمد الروسان، **القبائل الثمودية والصفوية** .الرياض / عمادة شؤون المكتبات / جامعة الملك سعود، ١٩٨٧.
E. Littmann, *Zur Entzifferung der Safa-Inschriften*. 1901.

(٢) شكل ما يعرف الآن بمدونة النقوش الأردنية في قسم النقوش بمعهد الآثار، ويحاول المختصون نشر مجلد النقوش الصفوية التي جمعت اثناء العمل الميداني في العامين ١٩٩٠ - ١٩٩١ من موقع غدير الملاح إلى الجنوب الشرقي من الصفاوي، وكذلك نشر ما جمع من نقوش في كل المواقع التالية: بيار الغصين، الشبيكة، والنقوش الثمودية من منطقة باير.

(٣) محاولات هاردنج وأوكسبتي في معرفة بعض ما تحتويه الرجوم. كذلك المحاولة في جاوه من قبل البعثة الأثرية في الموقع، أنظر:
G. L. Harding, 'The Cairn of Hani', *ADAJ* 2 (1953): 8-56; S. W. Helms, *Jawa. Lost City of the Black Desert*, 1981, pp. 217-229.

(٤) محمود الروسان، **القبائل**، ص ٢١٤ وما بعدها.

منها النقوش المختلفة، ثم الخطوات المتبعة عند كتابة النقش وحتى يصبح نقشاً واضحاً، ثم مهارة الكاتب نفسه في التعامل مع السطح العلوي للصخور المنوي الكتابة عليها، وهي في غالبها صخور بركانية صماء ذات لون أسود ضارب للحمرة.

ويعتقد البعض بأن هذه الكتابات ما هي إلا رسوم(٥) وقد رأى بعض المختصين أن أصل الحروف للكتابات الشمالية رسوم آدمية وحيوانية حورت إلى أشكال ثابتة ثم أصبحت فيما بعد أبجديات.(٦) أما كاتبو النقوش الصفوية فقد نهجوا عدة طرق خاصة عندما كتبوا على الصخور البركانية، فاستخدموا أدوات حادة كالأزاميل الحديدية التي تخدش الجزء العلوي من سطح الصخرة أو الحجر، وتحدث به شقاً يختلف عمقه بين نقش وآخر (١-٣ملم)، وكذلك يختلف حجم الحروف في النقش الواحد عن غيره حسب سماكة هذا المنقاش ومهارة الناقش، وأعتقد أنه كان يسبق هذه الخطوة ما يعرف بتقدير المساحة المعّدة للنقش، ويجب أن تكون ظاهرة كاملة للعيان، ولا يختفي جزء من النقش عن النظر، وإذا حدث مثل ذلك فإنه يكرر النقش في مكان قريب من النقش الأول، كذلك فإنه يترك مساحة كافية أيضاً إذا كان يصاحب النقش رسم من الرسوم لجمل أو أسد أو حمار أو فرس أو أية رسوم آدمية أخرى. وكثير من النقوش كانت تحاط بإطار بيضاوي الشكل أو مستطيل، ولا ينسى الكاتب أن يضع في اعتباره ترك مساحة للسبعة نجوم(٧) التي تتكرر في حالة وجود رسم يصاحب النقش، وكأنها العين الساهرة على النقش وعلى الرسم.(٨)

ثم يحدد حجم الحرف بأداة غير حادة، ثم يتم دقّه بالأداة الحادة (شكل ١) (نقش WH 362) ، وعند إضافة رسم إلى النقش يتم نقشه بطريقة الرسم نفسها (شكل ٢) (نقش WH 627) أما في حالة ارتكاب الكاتب لأي خطأ فإنه يحاول طمس معالم الحرف تماماً بوضع خطوط طويلة وأفقية.(٩)

وهناك طريقة الخدش السريع لسطح الصخرة العلوي بسن مدبب كالسكين أو السيف أو رأس الرمح، وهي أدوات متيسرة خاصة لمن يعيش متنقلاً وسط الحرار، وتستخدم للصيد والذبح وسلخ الجلود أيضاً، أو دفاعاً عن النفس عند مجابهة حيوان كبير كالأسد أو الذئب.

وأستخدمت كذلك طريقة الدق المتتابع، فنجد أن الحرف الواحد يتكون من عدد كبير من النقاط المتجاورة التي حدثت بفعل الدق، وتكبر هذه النقاط وتصغر حسب حدة رأس الأداة، وهي طريقة متبعة بكثرة. والحروف التي تحدثها هذه الطريقة تعتبر كبيرة نوعاً وسميكة، وتترك أثراً ذا لون أحمر على السطح العلوي. ولكن هذه الطرق بمجملها لا تكوّن مراحل لكتابة ولا يسهل تحديد أيها الأقدم، فإن بعض النقوش قد يبدأ كاتبه بطريقة من الطرق السابقة

٠١

٠٢

(٥) رينيه ديسو، **العرب في سوريا قبل الاسلام**، ترجمة عبدالحميد الدواخلي، القاهرة، ١٩٥٩، ص٥٦.

(٦) K. Majeed, *The Prehistoric Rock Art of Northern Saudi Arabia,* Ph.D. Thesis under publication, University of Southampton, 1988, Charts A and B.

(٧) السبعة نجوم تأتي بأشكال متعددة منها النقاط، أو الدوائر، أو الخطوط العمودية. وفي الغالب تكون داخل إطار أو على الإطار نفسه، وفي بعض النقوش يصاحب هذه السبعة نجوم رسم آدمي «طفل أو إله».

(٨) عادل ناجي، «كتابة صفوية من صحراء الرطبة»، **سومر** ١٨ (١٩٦٢)، ص ١٦٩.

(٩) F. V. Winnett and G. L. Harding, *Inscriptions from Fifty Safaitic Cairns*, Toronto, 1978. (WH).

ولأي سبب ينهي نقشه بطريقة أخرى، ومن هذه الأسباب فقد أداته لرأسها المدبب، وعدم توافر أداة مماثلة، مما يدفعه إلى إكمال كتابته بطريقة أخرى وأداة مختلفة.

وبعد أن يصبح النقش ذات شخصية مستقلة سواء كان على صخرة منفرداً أم مجتمعاً مع نقش آخر أو نقوش أخرى أو كان داخل اطار أو بدون فإنه لا بد من التعرف على اتجاهات هذه النقوش، والمعروف في معظم النقوش العربية الجنوبية والشمالية نظام قديم وآخر أحدث؛ ففي العربية الجنوبية كان اتجاه الكتابة من اليمين إلى اليسار ثم من اليسار إلى اليمين وهو ما عرف بخط المحراث، أي كما يقوم الفلاح بزراعة أرضه. ثم أصبح طريقة واحدة وهي من اليسار إلى اليمين فقط، وهو ما عرف باللحيانية والديدانية إيضاً. أما الخطوط الأخرى مثل الصفوية والثمودية والتيمانية (نسبة إلى تيماء) فقد اختلفت صورتها إذ كتبت هذه النقوش بطرق عدة منها من اليمين إلى اليسار أو من اليسار إلى اليمين أو من أعلى إلى أسفل أو بطريقة دائرية أو حلزونية وخاصة الصفوية (شكل ٣، ٤)، ولذا يصعب جداً على المختصين معرفة بدايات النقوش، وقد وضعتُ ترتيباً خاصاً لمثل هذه البدايات في كتابي «القبائل الثمودية والقبائل الصفوية»، ص ٦٦ و ص ٢٥١، أما في النقوش الصفوية فيسهل التعرف على البداية من وجود اللام التي تعني الملكية لصاحب النقش أو تعني أنه كتب لفلان بن فلان صاحب النقش.

أما أدوات الكتابة التي حفرت بها النقوش الصفوية فليست معروفة تماماً حتى الآن، إذ أننا ما زلنا نعالج نقوشاً كتبت أو نقشت على صفحات الصخور، أي على مادة الحجارة فقط، ولم نجدها مكتوبة على مواد أخرى سوى بعض الأمثلة النادرة كالفخار والحجر الصابوني. وقد حرمنا من مواد أخرى كالجلود والعظام والمعادن والأخشاب والزجاج قد يكون الصفويين قد كتبوا عليها بأدوات مختلفة وبأنماط مختلفة لأنها أطوع، علماً بأن بعض العلماء قد أكدوا على استمرار استخدام هذا الخط حتى عام ٦١٤م.(١٠) ويرى ليتمان أنها بقيت مستخدمة حتى نهاية القرن الثالث الميلادي،(١١) ويؤيد ذلك ونت.(١٢) أي أنها توقفت عند استخدام خط آخر أصله آرامي وهو نقش النمارة (٣٢٨م).

لم تؤكد الدراسات الخاصة بتأريخ النقوش الصفوية حتى الآن لعدة أسباب، منها عدم وجود نقوش كافية ومؤرخة بسني حكم ملوك أو سلاطين أو حتى مجلس شيوخ قبائل، ولا ذكر لحوادث ذات صلة تاريخية مهمة تؤيد حقائق ثابتة عند شعوب مجاورة ومعاصرة للنقوش نفسها الا اليسير، ولم يعط هذا الموضوع العناية الكافية، وهنا لا بد من توجيه طلاب الدراسات العليا خاصة إلى البحث والتدقيق في هذا الموضوع ومعالجته بطرق حديثة تختلف من حيث الأسلوب المتبع ولست بصدد المحاولات السابقة التي كانت نتائجها اختلافاً في الرأي القائل بأن هذه النقوش بدأت منذ القرن الأول قبل الميلاد وحتى القرن السابع الميلادي، هذه الفكرة التي تعارضها مجموعة من العلماء (ليتمان، وينت) ويحددون نهاية القرن الرابع الميلادي كحد فاصل لاستخدام هذه الكتابة. ولم يتفق أيضاً على المكان الذي نبتت به غراس الكتابة الصفوية ومن ثم انتشارها في المناطق الشمالية من الجزيرة العربية وجنوب سوريا الكبرى

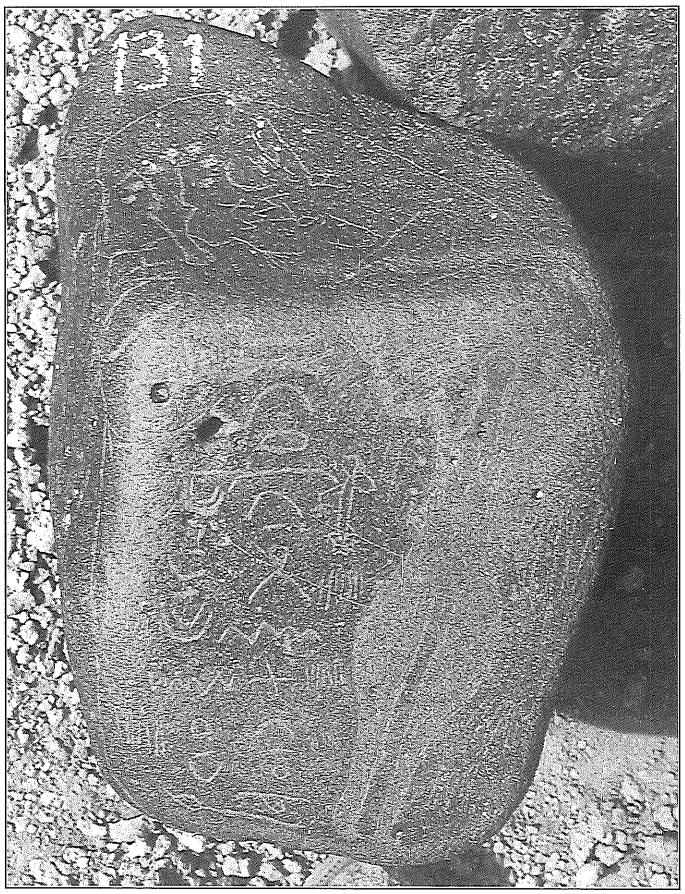

٣.

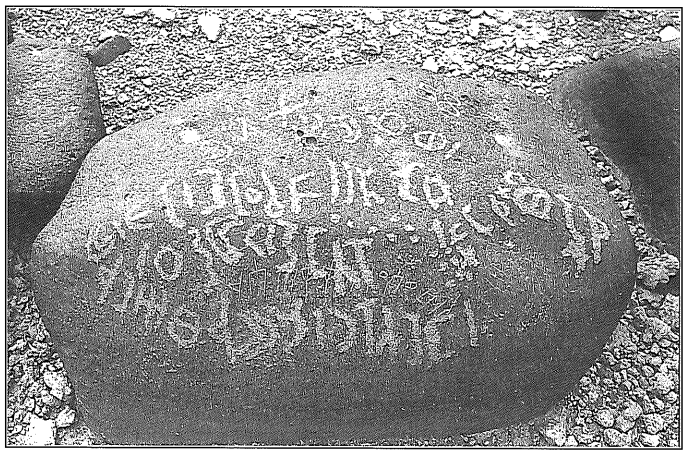

٤.

(١٠) W. G. Oxtoby, *Some Inscriptions of the Safaitic Bedouin*, New Haven, 1968, pp. 6-7.

(١١) E. Littmann, *Thamud und Safa, Studien zur altnordarabischen Ins-chriftenkunde,* Leipzig, 1940, p. Bnf 104.

(١٢) F. V. Winnett, *Safaitic Inscriptions from Jordan*, Toronto, 1957, pp. 11-12.

وأطراف العراق الغربية. ويبدو أن الأطراف الشمالية لشبه الجزيرة العربية كانت المنطلق لهذه النقوش، إذ إنه لم يعثر إلى يومنا هذا على أية نقوش صفوية أبعد من جنوب عرعر في المملكة العربية السعودية بينما اتجهت شمالاً حتى مدينة حمص، بشمال سوريا.

وسأستعرض فيما يلي أنماط وأشكال الخط الصفوي دون ترتيب تاريخي متسلسل بسبب عدم وضوح الرؤية الحقيقية والتصور المقبول لمثل هذا التسلسل الذي كان يرتبط في مواقع أخرى بالدلائل الأثرية العديدة من مراحل معمارية وطبقات من المخلفات الحضارية، وبوسائل تكنولوجية حديثة تساعد زملاءنا الآثاريين في تأريخ معثوراتهم الثابتة والمنقولة ولكنها لم تساعدنا في حقل النقوش الصفوية والثمودية خاصة والتيمانية واللحيانية عامة.

ومن هذه الأنماط والأشكال:

أولاً: الخط الصفوي المربع الذي دأب العلماء على جعله الأقدم في النقوش الصفوية، فقد جعله الاستاذ جام(١٣) عند مقارنته بالخط المعيني بالعلا في القرن الرابع وبداية القرن الثالث قبل الميلاد، ودلل على ذلك بمجموعة من الحروف المعينية في العلا ومقابلها في النقوش الصفوية خاصة حروف: الطاء، والظاء، والغين، والصاد، والراء والسين واعتمد في تطور الحرف من المعينية إلى الصفوية الشكل البدائي وحتى الصفوي المتطور معتبراً الشكل المربع وهو الأقرب إلى المعيني هو الأقدم وهكذا.

ومن ميزات الخط المربع استخدام أدوات مصاحبة لأدوات الحفر ربما كانت نوعاً من الأدوات الهندسية، لأن حروف هذا الخط كانت ذوات زوايا قائمة تماماً، ولا يمكن أن يتم ذلك الا بالاستعانة بأداة هندسية تثبت له الشكل والزاوية المطلوبة خاصة الحروف ذات الخطوط الطولية والأفقية مثل الهمزة، والباء، والثاء، والميم وهكذا، أما الحروف الدائرية مثل الواو، والعين، ونهايتي حرف التاء ومنتصف حرف القاف فكانت دائرية تماما وبتوازن حريص، مما يدل على استخدام أداة هندسية ترسم بها الدائرة. غير أن الكاتب كان يضيف إلى الحروف المتشابهة نهايات تبدو أنها خرجت عن الخطة الأساسية خاصة في حرفي الباء والراء، والسين والهاء وهكذا.

ولهذا الخط أيضاً ميزة أخرى وهي تباعد حروفه عن بعضها مما يؤكد ما ذكرناه سابقاً من استخدام الأدوات الهندسية أو شبه الهندسية. وكذلك لوحظ أن هذا الخط نادراً ما تصاحبه الرسوم الآدمية أو الحيوانية، وكتب بطريقة السطور المتوازية مع ترك الفراغ الكافي فيما بين الأسطر، وهما صفتان اختصت بهما الخطوط الجنوبية.

وقد كتب العديد من كتابات قبيلة عمره أو عمرات بهذا الخط حتى كدنا أن نطلق عليه خط عمره أو عمرات أو العمارات(١٤) وهي قبيلة صفوية كبيرة انتشرت في مناطق شاسعة من الصحراء الأردنية شرقاً وجنوباً(١٥) (شكل ٥، ٦).

ثانياً: الخط الرأس رمحي: وهو خط مستدق جداً رفيع غير غائر في سطح الصخور، حروفه طويلة، تميل إلى الأشكال الوترية. وتتقارب حروفه حتى تكاد أن تتشابك، وتصعب قراءته من أول محاولة لاحتمال الخلط في التعرف على الحروف، وغالبا ما يكون شكل النقش حلزونيا متداخلاً.

ويمكن التعرف على أكثر من شكل لهذا النوع:

أ – الخط الرفيع بحروف طويلة جداً،

ب – الخط الرفيع بحروف وسط،

ج – الخط الرفيع بحروف صغيرة.

ومن خصائص هذا الخط أن ترسم جميع الرسوم

٥.

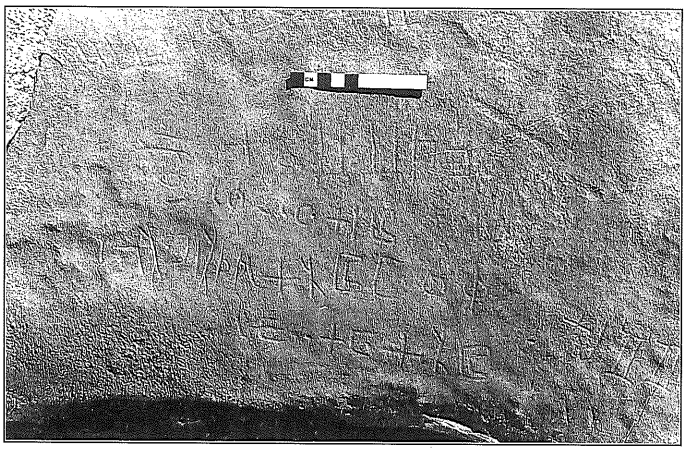

٦.

(١٣) A. Jamme, 'Safaitic Inscriptions from the Country of 'Ar'ar and Ra's al-'Anāniy,' in E. Altheim and R. Stiehl, *Christentum am Roten Meer*, Berlin, 1971, pp. 53-54.

(١٤) F. V. Winnett and W. L. Reed, *Ancient Records from North Arabia*, Toronto, 1970, pp. 14-13, no's 1,2.

(١٥) الروسان، **قبائل**، ص ٣٣٦.

المصاحبة للنقوش بالأسلوب نفسه والأدوات نفسها، وهي عبارة عن رأس رمح معدني أو من حجر الصوان الحاد، وقد عثر على مثل هذه الأدوات بأعداد كبيرة مجاورة للصخور المكتوبة ومعظمها تالف مكسور الرأس.

وقد كتب أفراد قبيلة ضيف العدد الكبير من هذه النقوش في الصحراء الأردنية وجنوب سوريا، حتى أننا حاولنا تسميته بخط قبيلة ضيف(١٦) ولدينا أكثر من خمسين نقشاً لهذه القبيلة كتبت بهذا النمط نفسه (شكل ٧، ٨).

ثالثـــاً: الخط الخاص: وهو الخط الذي يكتب بطريقة تختلف نوعاً ما عن باقي الخطوط الأخرى، ويمتاز بتناسق فريد بمجمل حروف النقش من حيث النهايات العليا والسفلى، ومن حيث المسافات بين الحروف؛ فتجد أن لكل حرف مكتوب شخصية قوية معبرة لا لبس في قراءته ولا احتمال لتأويله. وأشكال حروفه لا هي المربعة ولا الرفيعة بل ما بين ذلك (شكل ٩، ١٠) (WH 2112, WH 593 - 594).

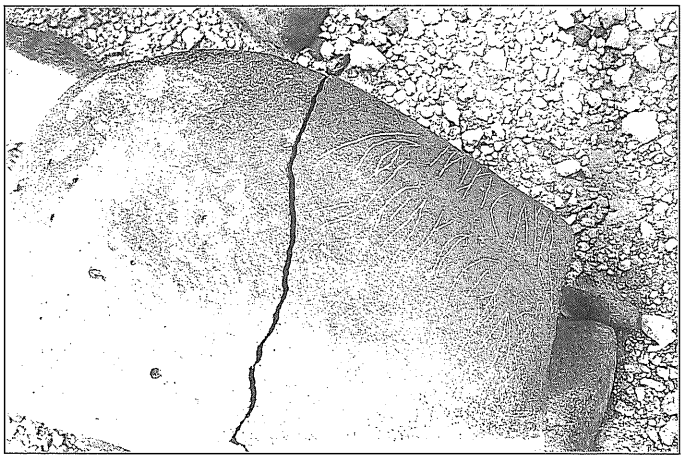

٠٧

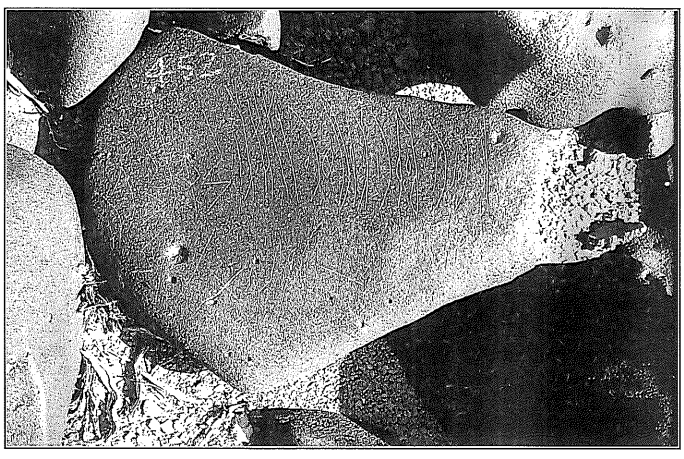

٠٨

رابعـــاً: خط العامة: وهو الخط الغالب في النقوش الصفوية، وكتب به أكثر من نصف هذه النقوش في المناطق المختلفة. ويمكن أن يطلق عليه اسم الخط «الدارج»،

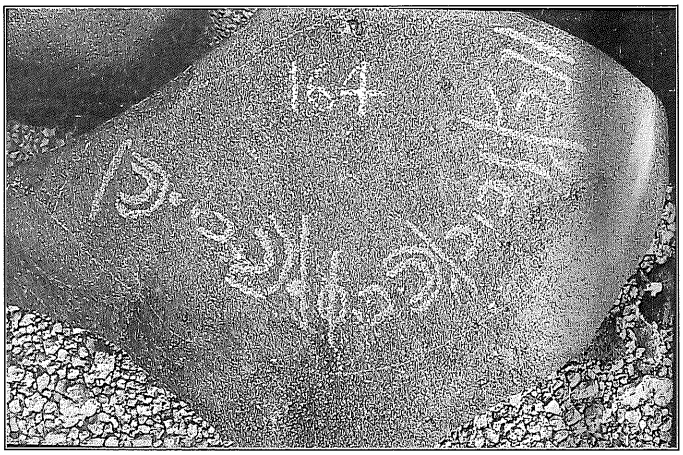

٠٩

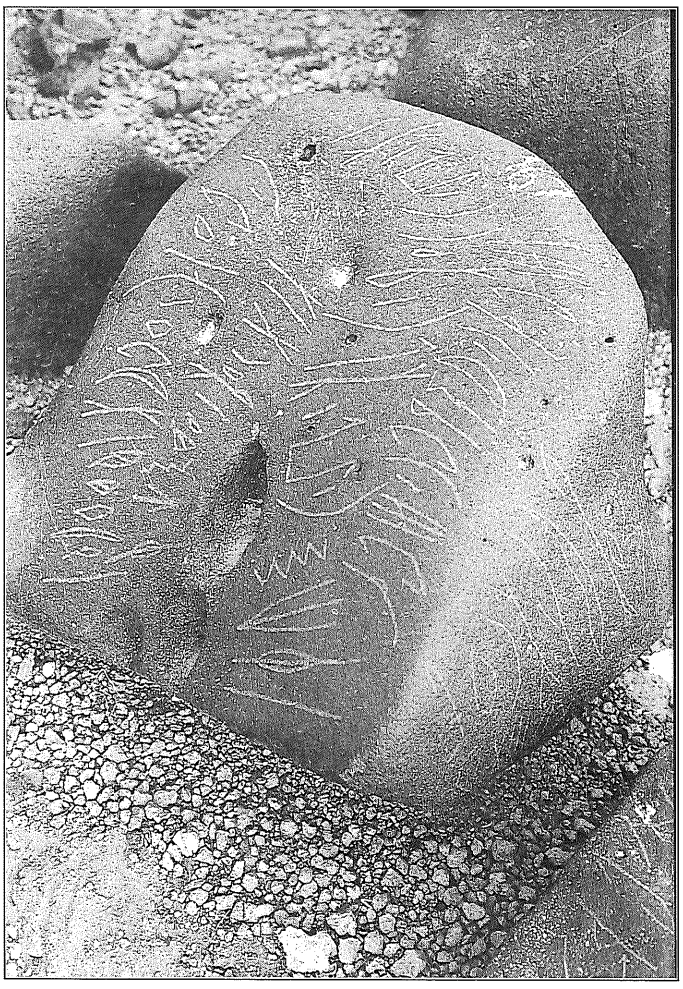

١٠٠

١٦) انظر: E. Littmann, *Safaitic Inscriptions*, Publications of the Princeton University Expedition to Syria, Division IV, Leyden, 1943; Winnett and Harding, *Inscriptions from Fifty Safaitic Cairns.*

ويكتب بلا تكلف أو تحديد، فنجده يكتب من اليمين إلى اليسار ثم من اليسار إلى اليمين أو من أعلى إلى أسفل أو العكس، وأحياناً يكتب بشكل دائري أو حلزوني والمسافات بين الحروف غير متوازنة أو متساوية، وأطوال الحروف غير متناسقة (شكل ١١، ١٢) WH 2945 WH 2830-2833 ومعظم هذه النقوش يصاحبها السبعة خطوط أو السبعة نجوم، وغالباً ما يعني ذلك الالتزام الديني عند أصحاب هذه النقوش.

ومن خصائص هذا النمط عدم التفريق ما بين الحروف المتشابهة مثل حرفي الباء والراء، والشين والفاء، ولا يتم التعرف على هوية الحروف إلا بالممارسة والقراءة المتكررة للنقش نفسه، أو أن يكون اسم العلم معروفاً وشائعاً، أو أن يكون فعلاً ورد في أنماط الخطوط الأخرى التي لا لبس في قراءتها.

خامساً: الخط الهش السميك : وهو من الأنماط القريبة من خط العامة، غير أن كاتبه يحاول تضخيم الحروف وذلك بجعل الحرف الواحد أسمك من الحروف العادية بخمس مرات إما بقصد ابرازه عن غيره من الخطوط حتى تسهل قراءته عن بعد، أو تعبيراً عن مكانة الشخص نفسه بين أقرانه. ومن ميزات هذا النمط أن حرف العين به دائرة صماء حتى تبدو كبيرة الحجم، وفي هذه الحالة فإن الكاتب يضع خطاً عمودياً سميكاً لحرف النون منعاً للتشابه. ولا تتم كتابة هذا النمط إلاّ بطريقة الدق بأداة كبيرة (شكل ١٣، ١٤) (WH 351).

سادساً: الخط المشبوك، وأقصد هنا أن الكاتب يحاول ربط بعض الحروف ببعضها خاصة أداة البنوة، وهو فن معروف بالعربية الجنوبية وهو «المنوقرام» أي ربط حروف الإسم الواحد سواء كان علماً أو اسم إله كنوع من القدسية والجلال أو اسم أحد الملوك، أما في هذه النقوش فكانت هذه المحاولات في الأنماط الخشنة السميكة، فبدأ النقش وكأنه خط واحد (شكل ١٥، ١٦) (WH 1747, 1748) وقد كان للأستاذ مايكل ماكدونالد محاولات طيبة في قراءة هذا الخط نشرت في حولية دائرة الآثار الأردنية ودراسات عربية في ذكرى محمود الغول(١٧).

١١.

١٣.

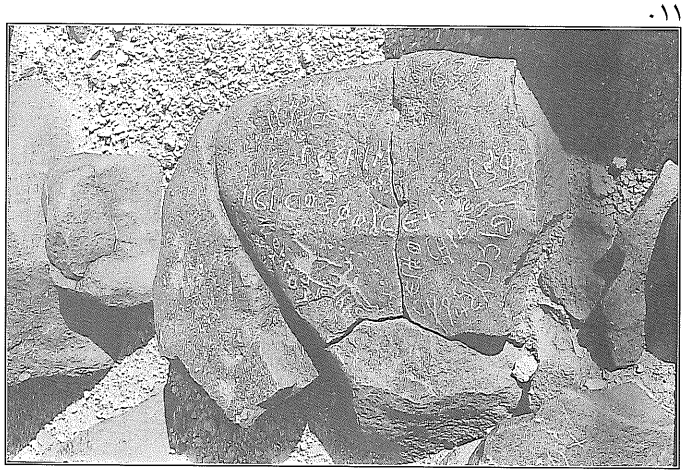

١٢.

١٤.

(١٧) أنظر أيضاً : M. C. H. Macdonald, 'ABC's and Letter Order in Ancient North Arabian,' *PSAS6* (1986), pp. 101-116; 'Epigraphic Gleanings from the Archive of the Palestine Exploration Fund,' *PEQ* (1991), p. 114.

وهناك بعض الأنماط الأخـــرى التي لا تندرج تحت أي من الأنماط السابقة وتصعب قراءة نقوشها.

١٥.

١٦.